الشـــــعر فى السودان

للأستاذ على المـــــارى

كنت أود أن يكون عنوان هذا البحث (النهضة الأدبية فى السودان) فأتناول فيه من حديث الشعر والنثر مايرسم صورة صحيحة أو قريبة من الصحيحة للحياة الأدبية هنا ، ولكن يبدو أنه سيمضى وقت ليس بالقصير دون أن يجد الباحث المادة الضرورية لمثل هـذا البحث ؛ فإن نثراً مستقلا يُكوِّن أدباً لم يُتح بعدُ لباحث .

ومن عجب أن يجد الإنسان مادة غير نزرة ولا قليلة للشعر ، ولا يجد شيئاً يمكن أن يعتمد عليه فى النثر ، وربما كان لذلك أسباب كثيرة هى فى الغالب أسباب سلبية ، وقد يكون من الخير التغاضى عنها ، حتى إذا كان من الخير أن نقول فى هـذا الشأن قلنا ، ولهـذا أرى من الحسن أن أقصر بحثى على الشعر وحده .

وطبعى أن يكون فى السودان شعر ، وأن يكون فيه شعر وفير ، فإن أسباب الشـعر ودوافعه قوية مستفيضة غالبـة ، ولو استجاب الشعراء لها ، ولو لم تشغلهم شئون أخر عن التأثر بها ، والتنبه إليها ، لجاءنا شعر وخير كثير .

وإنه لتروعك الرغبة القوية فى دراسة الآداب ، واستظهار المنظوم والمنثور عند كثيرين من أبناء السودان ، فإنك تجد عدداً غير قليل يحفظ الآلاف من أبيات الشعر ، ففضيلة زميلنا الشيخ محمد العبيد الأستاذ بالمعهد العلمى بأم درمان يحفظ شعر شوقى كله ، لا يند عنه بيت منه ؛ وفضيلة الشيخ أحمد العاقب — وهو شاعر — لا يكاد يمر بمسألة ، أو يأخذ فى حديث حتى يستشهد بأكثر من بيت من الشعر القديم ، أو من الشعر الحديث . ولقـد لاحظت أن دواوين : شـوقى وحافظ والبارودى والعقاد هى الدواوين المفضلة عند الأدباء السودانيين . أما القراءة فهم مغرمون بها ، وأكثر ما يقرأون للأسـاتذة المصريين من كبار الكتاب أمثال طه حسين والعقاد والزيات وهيكل ، وآثر المجلات الأدبية عندهم وأحبها إليهم مجلة الرسالة .

ولا مندوحة لمن يريد الدقة والإنصاف فى الحديث عن الشعر السودانى ، أن يقسمه إلى قسمين ، شعر المدرسة القديمة ، وشعر المدرسة الحديثة ، وكلتاهما تعيش فى هذا القرن . ونستطيع أن نقول إن المدرسة القديمة سيطرت على الشعر منذ ابتداء هذا القرن أو قبله بقليل ، وبقيت سيطرتها إلى عهد قريب ، وبعض أساتذتها لا يزالون يرفدون الأدب بأشعارهم ، وإن أخذت أشعة المدرسة الحديثة تبدو فى الأفق .

وطابع المدرستين جد مختلف ، فبينما نجد سمة التقليد ، والتمسك بالتقاليد ، والسير على النهج القديم ، غالبة على المدرسة القديمة ، نجد شيئاً كثيراً من التحرر والطموح والاستقلال فى المدرسة الحديثة . وقد تأخر — ولاشك — ظهور هذه المدرسة ولم يستقر لأصحابها ، نهاجهم بعد ، ولكنى أعتقد أن الخطة الجديدة فى نشر التعليم ، وإرسال البعوث إلى مصر وإلى غيرها ستؤتى أطيب الثمار فى هـذه النواحى . نعم لا يزال الشـعراء المحدثون فى أول الطريق ، ولكن بواكيرهم تبشر بأنهم يسيرون بخطى حثيثة نحو الكمال والنضوج .

وسأقصر حديثى فى هذا المقال على مقومات المدرسة القديمة ومناهجها ، وطابعها ، وشعرائها .

التقليد — فى الواقع — هو السمة الأصلية فى أساتذة هذه المدرسة . التقليد للشعر القديم وطرائقه ، تقليد فى الأغراض ، وتقليد فى المعانى ، وتقليـد فى الأساليب ، كما أن من السمات الغالبـة على هؤلاء الأساتذة سمة الوقار والرزانة والتحفظ . ولا غرو فأكثرهم من (المشايخ) بل إن منهم من وصل إلى أعلى المناصب التى يصل إليها الشيوخ فى السودان . نعم من شعراء هذه المدرسة من تخرج فى كلية غردون ، ومن تعلم تعليما مدنياً ، ولكن هؤلاء — أيضاً — لا يقفون بعيداً عن طائفة المشايخ ، لأن الروح الدينيـة أبرز مظاهر الحياة فى السودان ، وهى قوية مسيطرة ، والشعر — ونحن نتحدث عنه من الناحية الفنية — فى حاجة شديدة إلى الانطلاق والتحرر والاندفاع .

الشعراء ينظمون كثيراً فى المدائح النبوية ، وفى المـدح ، والهجاء ، والرثاء ، وقل منهم من يخرج على هذه الأغراض . أما معانيهم فهى هى التى نشأت مع الشعر العربى ؛ فالشجاع أسد

هصور ، والجميل بدر منير ، والممدوح أندى من الغمام كفاً ، وأجود من البحر يداً ، والفقيد تعزى فيه المروءة والندى ، والعاشق لا يزال يقف على الأطلال ، ويستوقف الصحب ، ويبكي الديار . وأما الأساليب فقلما تميل إلى شيء من الخروج عن منهج الشعر القديم ، فلا تجد شاعراً نظم في غير البحور المعروفة بل إنك لتجد أكثر ما ينظم من الشعر على أوزان البحور المشهورة من الطويل والكامل والبسيط ، هذه الأبحر التي تمثل الوقار والشيخوخة والهدوء . ولا أثر في هذه الأشعار لظل الحياة الجديدة الناعمة المتألقة ، فهي أكثر تأثراً بما يقرأ أصحابها من الشعر القديم ، وهم يحفظونه ، فلذلك يحتذونه .

وأبرز ما يصور لنا هذا النهج هو ابتداء القصائد بالغزل ، الغزل المصنوع طبعاً ، فالمدائح ، والتهاني ، والتوديعات ، وأشعار المناسبات ، لا بد من بدئها بالغزل ، ولا بد — مع ذلك — من إظهار المهارة في حسن التخلص ، وجودة الانتقال . على أن بعض الشعراء يترك هذه السنة ليحيي سنة أخرى ، فيبدأ قصيدته بذكر الخمر وسقاتها ونداماها ، أو يذكر النوق وحثها على السير كأن يقول الشيخ محمد عمر البنا ، وهو يمتدح عثمان دقنه وأعوانه

ماضر في أن لو حثثت العيس في ... أثر الحمول ، وإن علا التأنيب
وزجرت للبكرات دامية الخطا ... قد مسها نحو الحبيب لغوب
أوجعتها سيراً فصارت ضمراً ... كهلال شك ، ينجلي ويغيب

ثم تسأله هذه العيس إلى أين المسير ؟ ومن تريد — وأنت تذرف الدمع — ؟ فيجيبها بأنه يمم الزهادة والتقى ، فعساه يلقى نفحة من مر من زهد الدنيا وطلقها :

(عثمان دقنة) من رقى أوج العلا ... بفخاره ، والطاهر المجذوب

ومن الابتداء بذكر الخمر قول الشيخ عبد الله عبد الرحمن يهنيء أحد أصدقائه بزواج :

هات اسقني حلب العصير حمراء كالخد النضير
وادع الخلاعة والصبا واهتف بحيّ على السرور
وأقم (لأحمد) من بيوت الشعر أمثال القصور

وهذا ابتداء واضح الدلالة على الصنعة والتقليد ، فالشيخ عبد الله هذا العالم الوقور الذي نشأ في بيت العلم والتقى ، لا يطلب الخمر ، ولا يدعو الخلاعة ، ولا يستطيع أن يشبه الخمر بالخد إلا وهو مأخوذ بما في فكره من شعر القدامى . ثم ما هذه المفارقة العجيبة ؟ دعوة للخلاعة ، وحي على السرور ، ولكن الشيخ — وهو من شعراء السودان المعدودين — لا يجد أنسب لذكر الخمر — التي لم يذقها طبعاً — من تهنئة بزواج ، على أنه يبتدئ مدحة نبوية يذكر الخمر فيقول :

أدرى علىّ الكأس يا ربة الشعر ... وجودى بمسول الرضاب من الثغر
لعلى بهذى الكأس يا عز أنتشى ... فاسمو بادراكى إلى العالم الشعرى

وأنا — في الحقيقة — حائر في هذه الكأس ، أي شيء فيها ؟ أهو خمر ؟ أم شعر ؟ أم رضاب عزة ؟

وكقوله في مطلع قصيدة ألقاها في حفلة الميلاد النبوي :

أدرها بعد نومات المنى ... كميت اللون كالخد الوضى
مشعشعة بماء المزن رقت ... كما رقت شمائل أريحى
حواليها نواعم آنسات ... نواعس ، ذات لحظ بابلى

وعلى ذكر الابتداء بالخمر أقول إن وصف الخمر ليس غرضاً أساسياً في الشعر السوداني ، وإن كنا نجد بعض الشعراء يتسلى بها ، كما يقول الشاعر صالح عبد القادر .

اسكب الراح ، وتاول من طلب ... وأدر كأسك ، فالدنيا طرب
واسقنيها بنت كرم عتقت ... تطرد الهم ، وتشفي من تعب
يا رفاقي لا تلوموني على ... حبها ، فالعيش في بنت العنب
ما علينا أن شربناها وقد ... كتب الله علينا ما كتب

أما الابتداء بالغزل ، فهو — كما قلت آنفاً — اللازمة التي لا تنفك الكثير من القصائد ، ومن ذلك قول الشيخ عمر الأزهري يمدح صاحب مجلة الجوائب حيث يقول في أولها :

سلوا عن فؤادي مسيلات الذوائب ... فقد ضاع من بين القلوب الذوائب
فلا سلمت نفس من الحب قد خلت ... ولا كان جفن دمعه غير ساكب
سبا مهجتي لدن المعاطف أهيف ... له لفتات دونها كل ضارب
ولا عيب فيه غير أن جفونه ... بثتها على كسر جميع المذاهب

وهذا شعر جيد ، لولا ما ذكر فيه من هذا الاصطلاح النحوي ، وإن كان ذلك يعد ملحة ملفتة ، وهكذا يمضي في غزله حتى يقول متخلصاً .

وحبي له لم يخف في الكون أمره ... كحب الملا مصباح أفق الجوائب

ولا تعدم في هذه الناحية من يستن سنة أخرى أيضاً ،